أما قبل

فهذا كتاب الكتب في السّيرة الشّعبية العربية – بالنسبة لي على الأقل ؛ فقد صدر لي في هذا الموضوع من قبلُ كتبٌ : « فن كتابة السيرة الشعبية » بالاشتراك مع صديقي الدكتور محمود ذهني ، ثم « أضواء على السّيَر الشعبية » ، ثم « السِّيَر الشّعبية العربية » ، ثم « عالم الأدب الشّعبيّ العجيب » ، ومن حقي أن أضمَّ إليها « الجذور الشّعبية للمسرح العربيّ » ، و « الأصول للرواية العربية » ، كما لعله من حقي – أيضاً – أن أضمَّ إليها ، كتاب في الرواية العربية : عصر التّجميع ، وهو الكتاب الرائد الذي فجّر كل هذه الثورة من الكتب ، ولعله فجر ثورات أخرى من كتب أخرى ، بعضها عرفته ، وبعض لم أعرفه .

آخر الأمر كان إحساسي حين كُلّفتُ بكتابة هذا الكتاب « أدب السيرة الشعبية » أنني في مأزق ؛ فكيف يمكن أن أكتب كتاباً جديداً تماماً في هذا الموضوع الذي ألّفت فيه كل هذه الكتب ، إلى جانب كتابة العديد من المقالات في المجلات الأدبية وغير الأدبية ، وكلُّها تتناول هذا الموضوع الذي كان شغلي الشاغل كل أعوام عمري الواعية ؛ ولكنني أحسست أن الذين كلّفوني بهذا الموضوع يحسّون – رغم معرفتهم بكل ما أصدرته فيه وحوله – أنني تناولت الأطراف ولم أهاجم صلب الموضوع بالشجاعة المطلوبة ، والمهمة ، والواردة في الدّراسات الأدبية الجادة .

وقد ظللت فترة في حيرة كاملة : كيف يمكن أن أقدّم دراسة جديدة في هذا الميدان الذي أشبعته دراسة وبحثاً ؟ وتوقّفت ، وعدتُ مرات ومرات ، ولكنني أحسست في لحظة ما أن ما قدمتُه كلّه لم يكشف عن وجه السيرة

الشعبية كأدب ، ربما كشف عنها كعمل شعبيٍّ متميز ، وربما تحدث عنها كجزء من الأدب الشّعبي المبهم القواعِد والأصول ، والذي أحاول أن أتلمَّس قواعده وأصوله – وربما حاولت أن أضع محاولة مبدئية في فهم فن كتابة السيرة الشعبية من حيث بناءُ البطل ، وتطور وجوده داخل العمل الرّوائي ، ودوره الأساسي والفعّال في تحريك الحدَث ، وفي صياغته .

وكانت هذه الدراسات (طولية) ، إن جاز هذا التّعبير ، والحقيقة أن كل الدراسات التي سبقت هذه الدراسات كانت (طولية) أيضاً : دراسات الدكتور عبد الحميد يونس عن الظاهر بيبرس والهلالية ، ودراسة الدكتور محمود ذهني عن عنترة ، ودراسة الدكتورة نبيلة إبراهيم عن ذات الهمة . كلها كانت دراسات (طولية) وكانت تنقصنا بشدة الدِّراسات (العَرْضية) إن جاز هذا التعبير أيضاً .

والمقصود بالدراسات (الطولية) هنا : الدراسات التي تتناول السيرة ، من حيث تتبُّع أحداثها ، ونموّ هذه الأحداث ، ودلالاتها . كما تتناول البطل والشّخصياتِ الجانبية ، والمساعدة ، والشّريرة أيضاً ، في حركتها الحياتية مع البطل منذ المولد – أو قبله – وحتى نهايته ، أو امتداداته بعد الموت . وهو ما وفّته الدِّراسات التي ذكرتُها حقّ الوفاء ، ولكن أن تبدأ في دراسة السِّير الشعبية دراسةً (عَرْضيَّة) أي دراسةً تتناول وقفاتٍ حولْ (الوحدات) التي تستعملها السِّير ، وحول الامتدادات الإنسانية التي تُقدِّمها هذه السير ، وحول الارتباطاتْ التاريخية والأسطورية لهذه السير بالموروث الثَّقافي الشّعبي العربيّ والإسلاميّ – فهذا ما كان ينقصنا تماماً ؛ لنتعرف على الوجه الحقيقيّ للإبداع الشّعبي في هذه السير . كما أن الدراسات التي تحاول استخراج الوجه الحقيقيّ للإنسان العربيّ مبدع هذه السير ، والرموز التي أضفاها على سِيَره لتعبِّر عن واقعٍ عاشَه وعاناه ، وربما لا يزال يعيشه ويعانيه – كانت ناقصة .

هناك بعض المحاولات وخاصة في كتاب « عالم الأدب الشعبي العجيب »

ولكنها كانت تحتاج إلى متابعة واستمرار ، ومن هنا كان مدخلي إلى هذا الكتاب الجديد ، الذي أزعجني عاماً كاملاً – لا هو يريد أن يُلقي بمفاتيحه ، ولا هو يريد أن يطوِّع نفسه لإرادة الناشر المرتبطة بمواعيدَ ثابتةٍ ، وقواعدَ راسخةٍ في مسألة التَّعاقد والنَّشر ؛ ولكن هذه الحيرة وإن استمرت طويلاً ، إلا أنها بعد حين وجدت مخرجها في هذه الفكرة : فكرة الدِّراسة العَرْضيَّة ؛ ومن هنا كان الحديث عن الفولكلور والإبداع الدّرامي ، ثم عن السيرة الشَّعبية ، والإبداعات الشَّعبية ، ثم عن البطل في السيرة الشعبية ، ثم عن أدب السيرة الشعبية والخيال العلميّ المعاصر ، ثم عن الشعر في السِّيَر الشعبية . إنها محاولة لربط السير الشعبية بعمقها الفولكلوريّ من ناحية ، وبارتباطاتها الإبداعية الشعبية من ناحية أخرى ، كما هي محاولة لربطها بالإبداع الأدبي العربي المتّصل من ناحية ، وربطها بالإبداع الدِّراميّ المعاصر ، وهو أدب الخيال العلميّ من ناحية أخرى .

لقد اقتضى هذا قراءةً مركَّزة وعميقة للسير الشعبية المعروفة حتى الآن ، كما اقتضى قراءةً لكتب التاريخ والأخبار ، وكتب الأدب العربيّ ، وكتب المجمَّعات الأدبية والشعبية أيضا ، كما اقتضى – أيضاً – صلة وثيقة بالإبداع المعاصر المرتبط بنفس المصادر ، والرؤى الإبداعية .

ومن هنا تكوَّن منهجٌ (عَرْضيٌّ) يمكن أن يضيف إلى الرُّؤى (الطولية) بعضَ الأشياء ؛ فكل هذه القضايا كانت تحتاج إلى من يقتحمها ليضيف إلى رؤيتنا للعملية الإبداعية في السير الشعبية أبعاداً أكثرَ عمقاً من مجرد تتبُّع جداول المكوِّنات ، والعناصر البشرية المشاركة ، وحركة البطل ، والأبطال المساعدين ، والأبطال الشِّريرين – وهم أيضاً لم تكن رؤيتهم الاجتماعية والسياسية واضحة في أذهاننا معشر دارسي الأدب الشعبيّ والفولكلور .

إن الدّارس العاديَّ يعاني معاناة كبيرة في التَّركيز على مصادره ، وفي فَهْم ما تشي به المراجع والمصادر من حقائق ، أو افتراضاتٍ علميّة أو نقدية ؛ ولكن الدّارس المتخصِّص تصل معاناته إلى حدِّ المرض ، أو المعاناة المرضيَّة بمعنى أصحّ

– وهذا ما أصابني به هذا الكتابُ ، ولستُ أعرف كتاباً أوجعني كهذا الكتاب رغم عدد الكتب الوفير الذي قدمتُه للمكتبة العربيه بعامة ، والشّعبية بخاصة ، ولكن النتيجة كانت تستحقُّ كل هذا العناء ، وكان رخيصاً من أجلها كل هذا العناء .

فأنت تريد أن تكون دارساً للأدب العربيّ ، وللأدب الشعبيّ العربيّ ، وللفولكلور بعامة ، كما أنك تريد أن تكون ناقداً فناناً ، يحسُّ بنفس كلمة الإبداع في السيرة الشّعبية ، كما أنك تريد أن تكون مبدعا ذوّاقة في نفس الوقت ، تضع نفسك مكان المبدِع ، وتتخيل أحلامه ورؤاه ، وطموحاتِه الفنية .

كلُّ هذا معاً في وقت واحد ؛ ولكنه فرضٌ واجب على مَنْ يريد أن يقدّم جديداً في حقله .

ولست هنا أعتذر لأحد ؛ فالكتاب وقد اكتمل اعتذارٌ وحده عن كل تقصير في المادة أو النّتائج ، أو الزمن الذي كان متاحاً له ، وهو نفسُه سعادةٌ للكاتب أنْ أحسَّ أنه أنجز شيئاً كان من صميم أحلامه .

كل أملي أن يكون هذا العمل مقدمة لأعمال أخرى تزيد ثراءنا في الرؤية ، ومقدرتنا على المتابعة والفهم ، وتُثري أدواتِنا في اقتحام هذا العالم الثَّريّ الخصب الذي يحتاج إلى أجيال من المتبتّلين في محرابه ؛ ليكشفوا لنا عن أسراره ، ويتيحوا لنا ذخائره وكنوزه .

وما زال هذا النّبع ثريا ومعطاءً للدّارس والمتلقّي على السّواء ، ولعله أكثر وعداً وإغراءً للمبدع العربيّ المعاصر الذي ينبغي أن يرتاد المنهل ، ويدخل دنيا المغامرة ، والمعرفة والصّبر ، إن أسعفته الأدوات ، وأتاح له إيقاع العصر .

فاروق خورشيد

obeikandi.com